

المحاضرة الثالثة عشر التحليل السياقي للنص الأدبي:

أهداف المحاضرة:

الهدف الخاص:

- أن يوظف أنواع السياق في تحليل النص الأدبي

الهدف الإجرائي:

- أن يبرز دور الإحالة والمعايير النصية في التحليل السياقي للقصيدة.

لم تخلق اللغة لتكون في قوالب الجاهز ودفاتر النسيان، بل لترحل في نبض القلب ورفرفة الروح ودهشة العقل. لقد كانت منذ الخليقة، ولا تزال، بيت وجود الإنسان الذي فيه سكن وريشته التي وبها امتاز، يستشعر ويبرع، يسأل ويبحث عن أجوبتها الحثيثة، وقد منحتة إذ ذاك ميزة الكائن الحي، المعبر المفكر، وأورثته قلبا شفيقا وجود انفعلا ورمقا وعقلا يزن فيسدّد. إنها كينونة الرمز الغريب، الذي يعبر عن رهافة الشّعر ويدلّ على عقلنة العلم، وبينهما تسكن التفاصيل السهلة الممتعة. و من الوظيفة المعرفية/ الوصفية إلى الوظيفة الشاعرية/ الجمالية ومن الذاتية إلى الموضوعية، سنحاول قراءة نموذج شعري من ديوان كثير عزة.

الشعر: كلام موزن مقفى، وكما نعي، يراد بالكلام: اللغة الخاصة التي بها يفرق إنسان عن إنسان، فليس كلّ واحد بقادر على بلوغ المقام العالي للشّعر أو أسلوبه الرفيع، فأدهش ما يمكن أن يصادفك في هذا النّظام المتقرّد هو الوزن وانفلات موسيقاه، وكأنّ العلاقة بينهما لا تقف على حدّ، إذ نجد الحرف فيه منتصب القامة/ مهيبض الجناحين، والصّوت خفيفا/ ثقيلًا، والرّوي ساكنا/ متحرّكا، والنفس طويلا/ قصيرا، والأفق قريبا/ بعيدا، والحسّ حاضرا/ وغريبا، وهكذا هلمّ جرا، فمهما انتظم الصّوت فيه يبقى متحرّر القيود، كثيف البنى، متشظي الدلالات، متعدّد الرؤى والقراءات، يحيا حائرا بين تلك الثنائيات والتناقضات.

ولعلّ حفرا جنيالوجيا في لغة الشّعر، يُبدي لنا استحالة تحقّق قراءة سطحية عنه، أو الحصول منه على معنى ثابت يتبادله العوام، بل تراكمية طبقاته، وامتداداتها الدلالية وتلونّ مخيلتها وذكرياتها، يضعنا في عمق القراءات المتعدّدة، لأنّ الشّعر يقول ويترك القارئ متوسّل الفهوم. هذه التّجربة التي يتخيّر فيها الشّاعر لغته، حتى يُخرج نظاما أسلوبيا، نجدها تتفاوت في توظيف الفصيح والبليغ، لذلك الوظيفة التي تؤديها لغة الشّعر هي وظيفة جمالية، ومعنى هذا، أنّ مقصدية التوظيف اللغوي المائز إنّما يجري إلى استمالة القلوب وتحريك الأشجان، وتلك النزعة التأثيرية في أدبية اللغة وشاعريتها هي وجه الاختلاف عن علمية اللغة.

لنعد إلى زمنٍ كان فيه الشّعر ديوان العرب، والشّاعر نبيا يؤمن به المتّبعون، والقبيلة مضيافة الكلام متفاخرة بين باقي الأقوام، إنّهُ الرّمن الذي كانت القصائد تعلق في أقدس مكان، على أستار الكعبة تشريفا وتعظيما، وإبرازا للمكانة واسم صاحبها والممتدين إليه. لقد أبان الجاهليون بلسان عربي عن ديوان شعري يصعب تكراره، خُلد فيه عنتره بن شداد وامرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وعمرو بن كلثوم، وغيرهم كثر، خلدوا نظام قصيد أجم عقول القراء من جميل اللفظ وجزيل المعنى، يعود إليهم الباحث استرواحا عن النّفس رمشا وتعرفا على عقلية حياتهم رمشا مواليا.

النموذج 1: يقول عنتر بن شداد¹ (التبريزي، 1993، صفحة 28):

- كَم يُبْعِدُ الدَّهْرُ مَنْ أَرْجُو أَقَارِبُهُ *** عَنِّي وَيَبْعَثُ شَيْطَانًا أُحَارِبُهُ
- فَيَا لَهُ مِنْ زَمَانٍ كُلَّمَا انْصَرَفَتْ *** صُرُوفُهُ فَتَكَتَ فِينَا عَوَاقِبُهُ
- دَهْرٌ يَرَى العَدَرَ مِنْ إِحْدَى طَبَائِعِهِ *** فَكَيْفَ يَهْنَأُ بِهِ حُرٌّ يُصَاحِبُهُ
- جَرَّبَتْهُ وَأَنَا عَرٌّ فَهَدَّبَنِي *** مِنْ بَعْدِ مَا شَيَّبَتْ رَأْسِي تَجَارِبُهُ
- وَكَيْفَ أَخْشَى مِنَ الأَيَّامِ نَائِبَةً *** وَالدَّهْرُ أَهْوَنُ مَا عِنْدِي نَوَائِبُهُ
- كَم لَيْلَةٍ سِرْتُ فِي البَيْدَاءِ مُنْفَرِدٍ *** وَاللَّيْلُ لِلْغَرْبِ قَدْ مَالَتْ كَوَاكِبُهُ
- سَيْفِي أَنَيْسِي وَرُمَحِي كُلَّمَا نَهَمْتُ *** أَسْدُ الدِّحَالِ إِلَيْهَا مَا لَ جَانِبُهُ
- وَكَمْ عَدِيرٍ مَزَجْتُ المَاءَ فِيهِ دَمٌ *** عِنْدَ الصَّبَاحِ وَرَاحِ الوَحْشِ طَائِبُهُ
- يَا طَامِعًا فِي هَلَاقِي عُدْ بِلا طَمَعٍ *** وَلَا تَرِدْ كَأَسَ حَتْفٍ أَنْتَ شَارِبُهُ

قراءة للنص:

إنَّ عنتر بن شداد" هو شاعر الحرب، كما أنَّه شاعر الحب، وحياته هي الحب الذي يلهمه في ساحات الوغى ويقويه على مواجهة الموت، و"عبلة" هي الحبيبة والمُنية التي لم تتحقَّق، إنَّها الحياة التي تحضره في لحظات الحسوم وفي ساعات الإنفراد. كما هو حال "زهير بن أبي سلمى" وغيرهم ممن وقفوا على الأطلال وبكوا هجرة قلوبهم؛ "فكانت (أم أوفى) قوة إنسانية في معلقة زهير، ولا يهمنا إن كانت هي في خيال الشاعر امرأة حقيقية أم خيالية ولكن يهمنا أنَّ (أم أوفى) في القصيدة تؤلِّف معنى كبيراً؛ لأنَّها أساس الحياة. التي تملأ الأرض حركة ونشاطاً، وبرحيل (أم أوفى) حصل التناقض فقد تغيَّرت الحال فغدت كلَّ الأصوات تجلجل ما عدا صوتها، وما أفسى هذا الموقف إنَّ مكان الموت الآن هو عين مكان الحياة التي كانت بالأساس مجلجة تدفع قوتها قوة الأرض التي عرفتها"²

وذاًت الموقف قد حدث مع "عنتر بن شداد، إذ "تبقى المرأة بالنسبة للشاعر رمزاً للحياة واتصالها واستمرارها، وفي لقائها معنى الإقبال على الحياة وهذا ما يفضِّله الشعراء الفرسان وعلى رأسهم عنتر بن شداد، فالموقف

¹ التبريزي، شرح ديوان عنتر بن شداد، 1993، ص 25.

² خالد علي سالم العدوان، المعاني الدينية في شعر شعراء ما قبل الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، 2007، ص 100.

في رأيه موقف حياة أو موت، سعي حثيث للفوز بقلب الحبيبة. كما تعود أن ينتصر على الموت ليحيا، والمرأة تعني الحياة عينها.³

بالعودة إلى نص القصيدة، نجد أن كلمة "الدَّهر" في نسيجها اللغوي مكررة بحرص، مما يجعله بمفهوم منهجي محققا للاتساق والأنسجام، وبمفهوم ثقافي العدو الحق، ف"العرب كان شأنها أن تدمّ الدَّهر وتسببه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من مزت أو هرم فيقولون: أصابتهم قوارع الدَّهر وحوادثه وبادهم الدَّهر فيجعلون الدَّهر الذي يفعل ذلك فيذمونه وقد ذكروا ذلك في أشعارهم."⁴

وقد توضّحت بجلاء سطوة الدَّهر في هذا النص، فكل من صور بعد الحبيب وإرسال الموت شيطانا يحاربه والصروف والعواقب والنوائب هي تجليات له، إذ يقف متأملا حائرا أمام هذه القوة التي فاقت كل قوة، حتى إذا سار في الصحراء منفردا غير الدَّهر وجهة الكواكب إلى العكس، وهي لا محالة صورة الغربة والحيرة من هذا العدو الحقيقي الذي يحبط بتفاصيل حياته وخطواته ولكن سيفه ورمحه أبدا يقفان في وجهه.

النموذج الثاني: كثير عزة⁵

- فوالله ثم الله لا حلَّ بعدها *** ولا قبلها من خلةٍ حيث حلَّت
- وما مرَّ من يومٍ عليّ كيومها *** وإنَّ عَظُمْتُ أيامَ أُخرى وَجَلَّتْ
- وحلَّتْ بأعلى شاهقٍ من فؤاده *** فلا القلبُ يسلاها ولا النفسُ ملَّتْ
- فَوَا عَجَبًا للقلبِ كيفَ اعترأفه *** ولِلنفسِ لَمَّا وُطِنَتْ فاطمأنَّتْ
- وإني وتَهيامي بَعْرَةٌ بعدما *** تخليتُ ممَّا بيننا وتخلَّتْ
- لكالمُرتجي ظلَّ الغمامةِ كُلِّمًا *** تبوَّأَ منها للمقيلِ اضمحلَّتْ

3. التحليل السياقي للنص:

في القصائد البلبلية التي يصدق شذاها بأنغام الهيام والتَّمزق العاطفي، يصعب أن تحلّل بلغة المنطق؛ فهذا الأثير المشجي المسكون ب"الها" و"ت" يفكّ رباط القيد العقلي؛ لأنّ السياق مكثّف الأشجان يعجب من

³ ليلي عبد الحميد الهنداوي، معادلة الحياة والموت موضوعا شعريا، مجلة دراسات تربوية، 2009، ع8، ص179

⁴ ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص339

⁵ بيروت، 1971، ص ص 102، 103. كثير عزة، ديوان كثير عزة، دار الثقافة

اعتراف القلب وذلّ النفس، والمتلقي هنا تجده يستشعر بقلبه وروحه لأنها رسالة الرّوح للرّوح، إبانة وتأثيرا فيها.

و"كثير" الشّاعر الإسلامي (ولد40هـ) الذي دخل إلى قائمة شعراء الغزل المحزون النّازف الذي قُطعت روابطه بالأخر المكمّل "عزّة"، قد وقّى الحبّ في هذه القصيدة مخملية الحرف، فما كانت كنيته إلا "كثير عزّة" تركيبا ثنائيا في واحد، سكنته ثم رحلت فاشتاقها في مواطن الحضور والغياب.

إنّ البعد اللّغوي والدّلالي والمقاصدي لهذا النّص الشّعري، يرحل إلى أباعد القسم التأكيدي على أنّ "عزّة" تلك المتخيّلة/ المتخيّية هي سيّدة المكان والزّمان وسيّدة الكيان بلا منازع، فقد اختار لسبك رسالته/ نصّه هذا، أسلوب التكرار، تثبيتا وتدعيما حرفيا على أنّها تتقلّب في غيابها كما تقلّبت في حضورها بين وطنين مسكونان بها على الدّوام؛ وطن القبل ووطن البعد، وطن الأيام السّوابق، ووطن الأيام اللّواحق، وطن الذكرى ووطن الوفاء، وطن القلب المطعون بالهم والهيام وبها، ووطن النفس المسكونة بهواها وبكل ما أوتي ضمير شأنها "ها" من فراغ يصعب ملؤه بغيرها. فهو يقول أنت التي حللت وحلّيت وها قد تخلّيت .

لعلّ تكرار القسم استئنافا ثمّ تتابعا "فوالله ثمّ الله" هو فتح لنص الحديث عن عزّة وغلق عندها، فالشاعر يحدّثنا باتساق وانسجام وبإشارة غير مباشرة عن ثنائية التخلي والتّحلي، حيث تركت أثر الحلول الزّماني والمكاني في القلب الذي لم ينازعها في حلّه أحد، لقد حلّته باستوطنانها وخلّته بذكرها، وبين الفعل الماضي الدّال على العموم "حلّ" والمخصّص لها "حلّت"، نجد أنّها ذكرى تتبع المستقبل المتعلّق بخلت؛ وهو تزيّن وتفعّج ونأي عن غيرها، لقد أفرغ قلبه إلا عنها.

وهو ذات الأسلوب التركيبي بين المنكّر من الأيام والمعرف بإضافتها "ها" في إحالة قبلية وبعديّة إليها إلى أيامها وزمنها وضمير شأنها الغائب الذي أضاف له العظمة والجلالة فتتابع القسم والتأكيد على أنّها العقد الدلالي الناظم. ثمّ لا أقسى من أن تتحدّث عن الغائب بضمير غيابه، وبضمير غيابك أيضا وإن كنت حاضرا، فبينه حاضرا وبينه غائبا إشارة إلى قمة التقطع والاعتراب، كأنه يسأئنا: من أنا بدونها، أنا لست أنا، أنا الغريب عنّي، وهي غربة الرّوح والإحساس المضني المليء بالشّوق الذي ورّع كالشوك في مسافات أزمنته وأمكنته وبين أعضاء كيانه، فعلوها الشّاهق، التجلّي الأعظم في قمم فؤاده قد أسكبه شلّالات العيون ، كأسراب تتوالى حائرة، تروح وتغدو بذكرها، تُزاحم بلبال القلب وبلباله وبال عقله وفؤاده؛ همومه وأشجانه، وحتّى النفس الجانب الذي يُنازع القلب، موطن الهوى والكشف: العزّة والعناد، المكابرة وحبّ التملك، لكنّها مذ وطنت عزّة ووطنتها ذلّت، وهو هنا يعترف نفسيا وقلبيا بذله وهوانه من دونها، فكأنّها النبض الذي يبعث فيه الحياة من جديد، فتجليها يفوق كلّ أمر جليل وإن عظمت أيام وجلّت.

كما أنّ السياق العاطفي الذي سبك النّص وحبكه جعل كلّ المستويات اللغوية والإشارات غير اللغوية تتلاقى في "عزّة" ولا عزّة من دونها، حيث كان أسلوب التكرار خاصية فنية وجمالية أسهمت في بروز الدلالة وتوالدها، المركز منها والهامشي؛ بـ"ها" الممدودة ضمير الشأن الذي يعيدنا في كلّ مرّة إليها، أيامها، حلولها وحلوها وخلوها فقد أنّت النّص بضميرها.

أمّا على المستوى الصرفي، فقد ساهم تكرار صيغة الفعل المضعف: هلّ، خلّ، ملّ حلّ جلّ ذلّ على أنّ الإحساس مضاعف، وإن كان قد حدث إبدال حرفي في تركيبه الفعل إلا أنّ تاء التأنيث قد زادت الصيغة أنوثة وجاذبية، فذهبت الدلالة الصرفية أيضا إلى معنى أنثوي يلحق بالدلالة الصوتية أي "عزّة"، حيث تشير النهاية إلى أنّ النّص "لامّي" وهو حرف قوي مجهور لا يصاحبه نفس يتوسّط الرخاوة والشّدّة بين بسط التحلي وقبض التخلي وهي عين الدلالات التي استتجناها سابقا.

إذ أنّه يوحي باللّوم وهذا الإحساس الجهري لن يكون إلا للعزيز الذي ترك مكانا وفراغا، كما أنّ اللام تعبير عن الرّفص فهندسته الصوتية تركّب من اللا والميم، فقد لام كثير عزّة في هذا النّص حدّ التعب، ومع ذلك لا نهاية للحب واللّوم، وعن هذا الحرف يقول ابن الجزري (ت833هـ) في باب مخارج الحروف: "واللّام أذناها لمنتهاهما"⁶؛ فمع كلّ نهاية بداية وهو الانحراف الأسلوبّي الذي اختاره الشاعر ليبيد لومه، كالهلال الذي هلّ فاستهلّ الجديد، وقد هلّت "عزّة" واستهلّت في النهاية فكانت المسند والمسند إليه. أمّا على المستوى الدلالي فقد مثّلت الحقول الدلالية بنية مفهومية تعين على تتبّع المعنى العميق للنّص، حقل التحلي وحقل التخلي وصلة الوصل بين هذه الثنائية الضديّة هو حقل التجلي.

إنّ النّص لا بدّ أن يكون ذا بنية دلالية وذا أبعاد مقاصدية أيضا، ولعلّ المقاصد في هذا النّص الشعري تتابع وتتعاطف كحرف الواو الذي وصل الأوّل بالأخير، وكالقسم الذي ثبتت السّطحي بالعميق، وكالتأكيد الذي أحال إلى أبعاد الزمان والمكان قبلتها وبعديها، فالمقام هنا هو مقام التواصل الروحي الشّفاف والشّوق والحنين، فكانت الأبعاد التأثيرية والوظيفة الشّاعرية الجمالية منعكسة في لعبة الكلمات؛ وانحراف الأسلوب بينه وبينها، نكاء خارقاً في عاطفة ثرة، وهو الانزياح والعدول الذي اختاره الشاعر ليعبّر بأسلوب غيري عنه وعنهما، وكأنّه لا فصل بينهما، ولا ينقطع النفس في وصل العقل بالقلب

فإذا ما تساءلنا عن المتى فسيجيبنا المقام بالدوام والاستمرارية القولية الوفاية المنجزة، وإذا تساءلنا عن كيف فسيجيبنا الأسلوب بجانيه الإبلاغي والبلاغي أنّه شعور خاص بصاحبه لا يوصف، مفعم بالصدّ وبالصدق، وإذا ما تساءلنا عن لماذا فسنقف عند تلك الألغاز التي أباحت تارة وأخفت تارة أخرى، وسنعود

⁶، 2006، ص2 ابن الجزري، منظومة المقدمة فيما يجب على قارئ القرآن أن يعلمه، دار نور المكتبات، المملكة العربية السعودية

في رحلة نصنصنة إلى قصائد الهيام كمثل قصيدة عنتره بن شداد التي استفتحنا بها وكلّ العشاق في الزمان
ليجيبنا التناص أنّ المحب لا يسأل لماذا أحبّ أو كيف، أو لماذا صمت وفي إجابة الأخير شجن الوفاء
وإن كان التخلي فقد بقي التحلي والتّجلي، فكما تقول معادلة الحب: طلبت أن يدوم حبّي، فدام الحب ورحل
الحبيب